دور الزاوية الزيانية في بلاد السيبة.

د. برشان محمد*

في ظل ضعف سلطة الدولة التي تنظم شؤون المجتمع بالهوامش البعيدة عن السلطة المركزية ،تبرز قوة العصبية القبلية كنتاج حقيقي لسيادة الفوضى والاضطراب،وضعف الولاء للسلطة السياسية ،وما ينجر عن ذلك من خلل يمس الحياة العامة للمجتمع ،فتشتد بذلك النزاعات وتستفحل الصراعات بين القبائل بحثا عن الزعامة وفرض الهيبة على الواقع،وهو ما ينسحب على وضعية منطقة الجنوب الغربي للجزائر خلال فترة الحكم العثماني والتي وصفها كثير من المؤرخين تبعا لتلك الوضعية ببلاد السيبة،أي البلاد والقبائل الخارجة عن نطاق السلطة المركزية وعدم الانضواء تحت لوائها ورفض الامتثال لأحكامها،في هذه الظروف الصعبة سجلت الزاوية الزيانية حضورها القوي كمؤسسة حضارية شاملة،ومعوضا حقيقيا للسلطة السياسية.

فأين يتجلى دور الزاوية الزيانية في بلاد السيبة؟ وماهي الخدمات التي قدمتها للمجتمع ؟ وماهي العوامل التي ساعدت على نجاح مهمتها في الوساطة والتحكيم بين القبائل،وحل النزاعات المطروحة أمامها ؟ وما طبيعة تلك النزاعات التي نشبت بين القبائل المنضوية تحت وصاية الزاوية؟

– الزاوية الزيانية وبلاد السيبة.

أثبتت التجربة التاريخية أن المنطقة التي لا تنالها أحكام الدولة، أو ترتخي فيها سلطتها تكون عادة مهيأة للفوضى والاضطراب، بسبب قوانين المغالبة والتدافع التي تحصل بين القبائل سعيا لتحقيق القوة والزعامة. وهو ما أشار إليه ابن خلدون عن دلك في قوله :" وان لم يكن في المصر ملك فلا بد من رئاسة ،ونوع استبداد بعض أهلها على الباقين "[1] ،فينجر عن ذلك تطور النزاعات القبلية وانتشار عمليات قطع الطريق وبالتالي تضطرب أحوال الناس ويصبح المجتمع بحاجة ماسة إلى نظام يملأ الفراغ

---

* أستاذ محاضر جامعة بشار

السياسي ويحل محل مؤسسة الدولة،ولأن الزاوية اكتسبت الشرعية الدينية، فقد نابت عن السلطات السياسية،ونشأت الطرق الصوفية لتسجل حضورها على مسرح الأحداث في ظل غياب أو ضعف السلطة السياسية،ويتعرض الدين للخطر، وفي المقابل فان الطرق الصوفية تضعف وتنسحب عندما تقوى السلطة السياسية[2] .

وخلال فترة حكم الأتراك للجزائر بقيت منطقة الجنوب الغربي الجزائري وباقي المناطق الصحراوية الأخرى بعيدة عن منال السلطة فصنفت تبعا لذلك ضمن ما كان يعرف بقبائل الرعية وليس قبائل المخزن المقربة من السلطة،والمعفية من كل الالتزامات ،بينما اقتصر ولاء مناطق الجنوب على تقديم الضرائب فقط[3].

وان قبائل "دوي" منيع أكبر القبائل في المنطقة عدة وتعدادا تطلعت إلى سلطة دينية فملأت ذلك الفراغ السياسي الذي عاشه أفراد المجتمع في تلك المنطقة الجغرافية لبلاد السيبة والذي لم يكن مستقرا،فهو يقوى ويضعف بفعل الصراعات الانقسامية بين القبائل،وتضفي من خلالها لمستها الروحية على الحلف الأمني الذي أبرمته مع قبائل أولاد جرير لتحقيق الأمن المشترك ضد غارات القبائل المجاورة، وفرض هيبتهم عليها.

ولأن الزعامة والغلبة لا تحصل لتلك القبائل البدوية إلا كعباءة دينية وروحية وهو ما ذكره ابن خلدون في قوله :"العرب لا يحصل لهم ملك إلا بعصبية دينية والسبب في ذلك أنهم لخلق التوحش فيهم أصعب الأمم انقيادا بعضهم لبعض للغلظة والأنفة وبعد الهمة ،والمنافسة في الرياسة فقلما تجتمع أهواؤهم فإذا كان الدين بالنبوة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم فسهل انقيادهم واجتماعهم"[4].

ان حضور الزاوية الزيانية في منطقة الساورة جاء بطلب من قبيلة "دوي" منيع حين تولى الشيخ محمد بن أبي زيان الولاية الروحية عام 1098هـ/1686م والتي رأت في وجوده استقرارا للأوضاع بالمنطقة، وتحقيقا لغايتها في فرض سيادتها على قبائل المنطقة.[5]

وهو ما أوجد ذلك الالتحام بين العصبية القبلية والدعوة الدينية مهما كان شكلها وطابعها مما يجعلها قوة مسيطرة،وقادرة على إحداث انقلاب في الأوضاع السائدة، فقوة العصبية إذن مستمدة أساسا من الالتحام الذي هو ينبع من النسب،فإذا أضيف إلى هذا الالتحام الاجتماعي التحام روحي بلغت العصبية أوج قوتها[6].

وعلى صعيد آخر فإن هذه الدعوة الدينية التي استهدفت تغيير الواقع وإصلاح معالمه القائمة لا تتم ولا تتحقق أهدافها إلا بوجود شوكة العصبية التي تظهرها وتذود عنها من يعترض سبيلها أو يتعرض لها. ومن ثم فقد تقاطعت مصالح الزاوية التي كانت تنشد استقطاب مريدها مع مصالح قبيلة "دوي" المنيع وفي ظل غياب سلطة سياسية تستوعب هذه الأطراف وتنظم علاقات المجتمع وتحفظ أمنه.

وحققت الزاوية الزيانية بعد تأسيسها في القنادسة استقرار الأوضاع الأمنية بعد سلسلة طويلة من الصراعات القبلية الحادة،وانتعشت التجارة معها خاصة تجارة القوافل بعدما كانت المنطقة تعج بقطاع الطرق واللصوص فأضحت مهمة قيادة القوافل وتأمين مسيرتها من المميزات التي انفردت بها الزاوية الزيانية عن باقي الزوايا المنتشرة بالمنطقة ، فلم يكن بمقدور أي تاجر على المغامرة بقافلته نحو الصحراء من دون التأكد من توفر حماية الزيانية لها من قبل أفراد القبائل المنضوية تحت لوائها خصوصا قبيلة دوي المنيع ، فكانت الزاوية الزيانية كما يقول صاحب منهل الظمآن " رحمة من الله مني بها على سكان المنطقة وما جاورها، فأغناهم الله بعد فقر وآمنهم بعد خوف" [7].

ومع مرور الوقت ازداد تجذر الزاوية الزيانية في أعماق المجتمع بفضل ذلك العقد الاجتماعي الذي ربط بينها وبين تلك القبائل المنضوية تحت وصايتها الروحية،وبالتالي تجاوزت مهامها التعليمية والدينية لتسجل حضورها القوي في مختلف مناحي الحياة ، حيث نجحت في حل النزاعات ومعالجة القضايا المطروحة أمامها،فترسخ الاعتقاد في شيوخها وانبهر الناس بكرامات الأولياء والصالحين منهم وخرقهم للعادة، فأصبح الجميع يعتقد بالحضور الروحي الدائم للولي الميت،وبقدرته على شفاء الأسقام والتوسط والشفاعة بينهم وبين الله [8].وهو ما سهل مهمتهم في عمليتي التحكيم وفض النزاعات، حيث كانت

تدخل في وساطتهم قوة خارقة.وكان مرابطو الزاوية الزيانية يستندون في حكمهم ومعالجتهم للمسائل المعقدة على رصيدهم الروحي وتغلغلهم في المجتمع فكل معارضة لحكمهم هو بالضرورة معارضة لحكم الله[9] ، في عرف الناس .

- دور الزاوية الزيانية في حل النزاعات بمناطق نفوذها.

لقد دأب شيوخ الزاوية الزيانية[10]عبر مراحلها التاريخية على تقديم خدمات جليلة للمجتمع في مجال الوساطة والتحكيم،وفض النزاعات الناشبة بين القبائل التي أعلنت ولاءها لشيخ الزاوية كقبائل "دوي" المنيع،وأولاد جرير،وبني قيل.وهي القبائل الأكثر تعدادا وبأسا في المنطقة[11].وهذا لا ينفي النجاح الذي حالف بعض شيوخ تلك القبائل في حل بعض النزاعات بين أفراد القبيلة الواحدة كتلك النزاعات المتعلقة بمسائل الطلاق والميراث وتقسيم الغنائم[12]...لكن عندما يرتبط الوضع بمسألة نزاع بين القبائل، فإن الأمر يتجاوزهم وقلما كانوا يتساوون مع شيوخ الزاوية في تأدية مهمة التحكيم والوساطة فيها[13].خصوصا إذا تعلق النزاع بقبائل متحالفة فيصبح الأمر أكثر تعقيدا ويتسع باتساع دائرة التحالف، وفي مثل هذه الأحوال يتطلب تدخل رجال محايدين،مؤهلين في التأثير الروحي ،أكثر من التأثير القلبي،على غرار شيوخ الزاوية الزيانية الذين اكتسبوا شهرة واسعة في حل النزاعات مهما كان طابعها ومستواها من التعقيد،وغالبا ما كانت تستعصي على شيوخ القبائل،وتعجز حتى السلطة السياسية في حلها عبر مؤسساتها القضائية.

ونذكر على سبيل المثال لا الحصر أنه في أواخر القرن التاسع عشر توسط شيوخ الزاوية في نزاعات الثأر،وفي الصراعات التي تقوم بين القبائل، ويكون محورها يدور حول الماء والأرض في الأساس،كالصراع الذي احتدم بين قبائل "دوي" منيع وبني قيل طوال الفترة الممتدة من نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، مثلما توسطوا في نزاعات قبيلة الغنائمة بوادي الساورة [14].

ونشير هنا إلى استمرار تمسك القبائل بالخدمات التي كانت تقدمها الزاوية في مجال التحكيم حتى في ظل وجود الاستعمار الذي عمل على بتر القضاء الإسلامي من خلال تعطيله العمل بالقانون الإسلامي الجنائي وتخويله حكام الأقاليم الجنوبية صلاحية حل النزاعات بين المسلمين.ففي سنة 1926 مثلا تحاكم أولاد جرير و"دوي" منيع لدى القائد العسكري لدائرة بشار،وطالبوا بحضور شيخ الزاوية الزيانية من أجل

فض نزاع نشب بين القبيلتين حول ملكية بعض الأراضي الواقعة في منطقة زوزفانة في الجهة الشرقية من جبل بشار[15].

ولم يقتصر حل النزاعات على المستوى الداخلي بل تعداه إلى الأقاليم المجاورة ، فكان الصالحون هم من يتولى القيام بدور التحكيم على شاكلة الصراع الذي وقع بين القبائل الفجيجية بسبب مشكلة المياه ،ومعلوم أن الماء يعتبر ملكية جماعية ومساهمة العائلات في إخراجه أو توفير إمكانية جلبه تجعل الكل يستفيد بحصة متماثلة مع مساهمتها،غير أن بعض الأطراف قد تخل بالقواعد الأساسية وتعتدي على حقوق الغير، وبالتالي يظهر النزاع ويشتد وهو المشهد الذي عايشه سكان قصري زناقة والوادغير بإقليم فجيج طوال القرن التاسع عشر،حيث تطور النزاع حول منابع الماء إلى مواجهات دموية،خاصة وأنه مس أطرافا أخرى دخلت دائرة الصراع بفعل قاعدة التحالف،كما هو الحال بالنسبة لقبائل أولاد جرير الجزائرية المتحالفة مع قصر زناقة. [16]

وهو ما ظهر جليا بعد عجز السلطة الزمنية ممثلة في سلطة المخزن عبر محكمتها العليا بفاس، في إخماد فتيل النزاع بمحاولتين الأولى كانت في سنة 1865 والثانية في سنة 1877 لكنهما باءتا بالفشل لأسباب موضوعية.وهو ما جعل كبار الجماعة يطلبون تدخل الزاوية الزيانية لحل هذا النزاع المرير.حيث أدراك مرابطو الزاوية جذور الصراع الحقيقية بحكم قربهم من المجتمع المحلي، ومعالجتهم الحكيمة للمسائل المطروحة أمامها،كل ذلك أهل الزاوية لاستئصال أسباب النزاع وجعلها تطرح صلحا يراعي متغيرات الواقع،ويخلق جوا من الوئام بين الجميع،فكانت معاهدة 1881 المبرمة بين القصرين بواسطة أقطاب الزاوية الزيانية بالقنادسة تتويجا لجهودها ونهاية لذلك النزاع الذي طال أمده. [17]

ولم يكن هذا العمل الجليل إلا ليكافأ عبر تقديم الولاء الروحي للزاوية الزيانية على القبائل التي أعلنت ولاءها الكامل لشيخ الزاوية ففرضت على تلك القبائل تقديم هبات عينية أو نقدية نظير ما كانت تستفيد منه خدمات الزاوية. [18]

ونشير أيضا إلى أن الخدمات التي كانت تقدمها الزاوية والمتمثلة في فض النزاعات بين الأطراف المتنازعة كانت إنسانية إذ لم تكن تقتصر على المسلمين فحسب، بل شملت كذلك يهود المنطقة كأقلية

دينية تمتعت بالحماية والأمان. [19] يذكر عبد الرحمان اليعقوبي في مخطوطه"بأن نفرا من اليهود من ساكنة القنادسة تعرضوا للسرقة من قبل مجموعة من اللصوص الذين نهبوا منهم متاعا....فشكوا ذلك إلى الشيخ أبي زيان،فحلف يمينا بالله أن يرجع اللصوص ما سرقوه إليهم وإلا رحل من القنادسة وتركها،فجد الناس في الطلب،فوجدوا المسروق بالجبل،فقال لهم الشيخ:أرضيتم؟

فقالوا له:يا سيدي أليس لنا حق على المسلمين،فقال لهم:نعم لكم ذمة الله لا ينقصها أحد إلا إن بدلتم وغيرتم،فقالوا له يا سيدي لا نغير ولا نبدل،فقال لهم:طلبنا من الله هدايتكم والدخول في الإسلام. [20]

الخاتمة:

إن الزاوية الزيانية سجلت حضورها القوي كمؤسسة حضارية شاملة تجمع بين القوة المادية والقوة المعنوية،وتصبح بديلا حقيقيا للسلطة السياسية بفضل ترسخ اعتقاد المجتمع في شيوخها ،ودورهم الفعال في حل المنازعات المطروحة أمامهم وتقديم خدمات جليلة للمجتمع في مجال الوساطة والتحكيم رغم عدم توفرها على آليات وأدوات الردع ،وتنفيذ الأحكام .

وبذلك نجحت في التجذر في أعماق المجتمع وتنظيم حياته العامة خارج قواعد الدولة، و تحقيق التواصل مع أفراده في كل مجالات الحياة من جهة وفرض وصايتها الروحية الكاملة على القبائل المنضوية تحت نفوذها من جهة أخرى .فكانت بمثابة الدولة أقامت الحق والعدل وساهمت في استقرار المجتمع الصحراوي .

الهوامش:

1- ابن خلدون عبد الرحمان، المقدمة، تحقيق درويش الجو يدي، بيروت، المكتبة العصرية، لبنان ن2002، ص.194.

2- سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، ط3، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986،ص.397.

3- سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981، ص.504.

4- ابن خلدون ،نفس المصدر، ص.151.

5- Gouvion, M,E ,Kitab Aayane El Marhariba ،Imprimerie Oriental Fontana Frères Alger.1920. P. 211

6- الجابري محمد عابد ، العصبية والدولة- معلم نظرية ابن خلدون في التاريخ الإسلامي ،دار الطليعة بيروت لبنان،1982،ص.287 .

7- Depont Octave, Xavier Cappolani, Les Confréries Religieuses Musulmanes, Alger, 1897 P.498. Voir aussi : – منهل الظمآن ومزيل الهموم والكرب والأحزان في كرامات شيخنا العارف بالله

سيدنا الحاج محمد ابن أبي زيان مخطوط غير مصنف موجود بالخزانة القندوسية ،بشار،ص ص 138،141

8- Ibid. PP. 497- 499.

9- روس أ.دان ،المجتمع والمقاومة في الجنوب الشرقي المغربي 1881-1912 ،ترجمة أحمد بوحسن ،مطبعة المعارف الجديدة ،الرباط ،2006 ، ص.113 .

10- تنتسب إلى مؤسسها الشيخ محمد بن عبد الرحمان بن محمد بن أبي زيان،(1650-1732) الذي اشتهر بالزهد والورع والاستقامة.فبعد رحلة علمية طويلة جاب خلالها أكبر الحواضر العلمية بالمغرب الأقصى وأرض الحجاز،طلبا للعلم والمعرفة،استقر به المقام سنة 1686 بالقنادسة. حيث أسس زاويته مستمدا تعاليمها من الطريقة الشاذلية عن طريق شيخه مبارك بن عبد العزيز الغرفي خلال تواجده بسجلماسة، فتحولت القنادسة بهذا التأسيس إلى قطب ديني واجتماعي وملتقى يتجمع فيه الزوار من كل حدب وصوب تقربا من الشيخ الذي فتح الله عليه بالعلم الظاهر والباطن، وصار الناس يتحدثون به،لما رأوا له من الخير والصلاح،فكبر مقامه عند القوم،وارتفع شأن الزاوية ليشمل نفوذها معظم أراضي الصحراء ومناطق عديدة من شمال الجزائر والمغرب. وحسب إحصائيات الإدارة الاستعمارية فإن الزاوية الزيانية كانت تحوز 15% من مجموع أتباع ومريدي الزاوية بالجزائر،08% بالمغرب الأقصى، ينظر :

- أبو عبد الله محمد بن القاسم القندوسي،شراب أهل الصفا في الصلاة على النبي المصطفى،تحقيق عبد الله حمادي وأحمد محمود الجكني ،دار الهدى الجزائر،2008 ،ص .6 .- التازي علي بن عبد القادر، نفس المصدر ، ص .118 .

-Louis Rin ,Marabout et Khouan ,Librairie ,Adolphe Jourdan ,Alger,1884 ,P408 .

11- De La Matinier (,H .M.P) ,Lacroix .(N), Documents Pour Servir a L Etude Du Nord Oust Africain , T2 ,Gouvernement General De L Algérie ;Alger ,1897,P583 .

12-Ceard (L), Gens et Chose De Colomb – Bechar, Imprimerie La Typo-Litho, Alger 1933,p72

13- روس ا.دان ، نفس الرجع ، ص .113 .

14- المرجع نفسه .

15- Ceard (L), op.cit, P.73.

16- مزيان أحمد،فجيج مساهمة في دراسة المجتمع الو احي المغربي خلال القرن التاسع عشر (1845-1903) مطبعة فجر السعادة ،المغرب 1988 ،ص .295.

17- هلالي العربي ،فجيج تاريخ ،وثائق ومعالم ، طنجة ،المطابع المغربية والدولية ،1981 ،ص. 61.

18- De La Matinier (,H .M.P) ,Lacroix .(N), op.cit, P.582 .

19- Ibid, P. 623.

20- اليعقوبي عبد الرحمان ،فتح المنان في سيرة الشيخ محمد بن أبي زيان ،مخطوط غير مصنف موجود في الخزانة القندوسية بشار، ص ص .327- 328.